

شرح «العقيدة الواسطية»

الدرس السادس

لفضيلة الشَّيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ
حفظه الله تعالى

النُّسخة الإلكترونية (٢)

الشيخ لم يراجع التفريع

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الدرس السادس

قال المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ:

وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ:

مَا وَصَفَ اللَّهُ بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ «الْإِخْلَاصِ» الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، حَيْثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾ [الإخلاص].
وَمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ فِي أَعْظَمِ آيَةٍ فِي كِتَابِهِ؛ حَيْثُ يَقُولُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

وَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨].

وَقَوْلِهِ: ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [التحریم]، ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾^(١)

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ [سبا].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد؛ فبدأ شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى وشرع في ذكر الأدلة التي فيها إثبات صفات الله -جل وعلا-، وفيها تفصيل ما كان سبق أن ذكر من أن آيات القرآن فيها الجمع بين النفي والإثبات، وأيضا أن من الإيمان بالله الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه ووصفه به رسوله ﷺ.

فقال رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى: (وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ: مَا وَصَفَ [اللَّهُ] بِهِ نَفْسَهُ فِي سُورَةِ الْإِخْلَاصِ)، (قَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ)، يعني بـ(الْجُمْلَةِ) ما تقدم.

وقد يحتمل أن يكون مراده بـ(الْجُمْلَةِ) قوله: (مِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ: الْإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ [اللَّهُ] بِهِ نَفْسَهُ) ويكون هذا تفصيل لقوله (الْإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ [اللَّهُ] بِهِ نَفْسَهُ). ثم ذكر الأدلة من القرآن التي فيها وصف الله جل وعلا نفسه.

ويحتمل أن يكون المراد ما تقدم من ذكر أن الطريقة لأهل السنة والجماعة هي الجمع بين النفي والإثبات، حيث ذكر أن طريقتهم هي أنهم يجمعون بين النفي والإثبات كما جمع ذلك الله جل وعلا في كتابه في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

ولكن على هذا الثاني يكون فيه إشكال من جهة أنه يصدق على ما ذكر في سورة الإخلاص؛ يعني

(١) سورة: الأنعام الآية (١٨) و(٧٣)، سورة: سبا (٥١).

الاستدلال الأول، والاستدلال الثاني، وذلك أن سورة الإخلاص فيها نفي وإثبات، فيها النفي المجمل وفيها الإثبات المفصل، وكذلك آية الكرسي فإن فيها الإثبات المفصل وفيها النفي المجمل، ولكن ما بعد ذلك من الآي قد لا يكون فيها نفي وإثبات.

ولهذا نقول إن قوله: **(وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ)** الأحسن والأنسب أن يكون متعلقاً بالأول؛ وهو قوله: **(وَمِنَ الْإِيمَانِ بِاللَّهِ: الْإِيمَانُ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ)**، قال: **(وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ)**.

قال رحمه الله: **(وَقَدْ دَخَلَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ: مَا وَصَفَ [اللَّهُ] بِهِ نَفْسَهُ)** الوصف: هو النعت، يعني ما كان نعتاً لله، ويراد بهذه الكلمة **(مَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ)** ما يشمل الأسماء والصفات والأفعال، لأنها تدخل جميعاً في إطلاق اسم صفات الله، فإذا قيل: صفات الله، مذهب أهل السنة في الصفات، فإنه يدخل ذلك الكلام في الأسماء، والكلام في الصفات، والكلام في أفعال الله جل وعلا.

وذلك لأن الأسماء ليست أعلاماً محضة؛ بل هي من جهة أعلام دالة على الذات، مترادفة من حيث دلالتها على الذات، ومن جهة أخرى كل اسم مشتمل على صفة من صفات الله غير الصفة التي في الاسم الآخر، فلهذا كانت الأسماء بهذا الاعتبار من الصفات.

والأفعال كذلك؛ أفعال الله جل وعلا تجمع بين -يعني فيما أخبر الله في كتابه أو أخبر عن أفعاله رسوله ﷺ- يجمع إطلاق الفعل عليه وإثبات الفعل له بين الحدث الذي هو المصدر وبين الزمن، وهذا -أعني الحدث- وصف، مثلاً في قوله: **﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ﴾** [المجادلة: ١] هذا فعل ماضٍ، الفعل الماضي مركب من شيئين:

■ الحدث وهو السماع.

■ وكون الحدث في الزمان الماضي.

ولهذا تدخل الأفعال بهذا الاعتبار في الصفات.

كذلك الفعل المضارع، **﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾** [الزخرف: ٨٠]، **﴿سَمِعَ﴾** هذا فعل مضارع فيه الدلالة على الحدث، وهو المصدر وهو السماع أو السمع، وفيه دلالة على زمنه وهو الحاضر؛ الحال.

ولهذا في قوله هنا: **(دَخَلَ فِي هَذِهِ الْجُمْلَةِ: مَا وَصَفَ [اللَّهُ] بِهِ نَفْسَهُ)** يشمل الأسماء بالاعتبار الذي ذكرنا، ويشمل الصفات، ويشمل الأفعال أيضاً كما أوضحت.

إذن قولنا: (إن مذهب أهل السنة والجماعة في الصفات النفي المجمل والإثبات المفصل)؛ نعني به أيضاً ما يدخل فيه الأسماء والأفعال أيضاً، لكنه في الصفات هذا هو المقصود، وإذا ذكرت الأسماء فباعتبار أنها مشتملة على الصفة، وإذا ذكرت الأفعال فإنها باعتبار أنها مشتملة على الصفة.

قال: **(فِي سُورَةِ الْإِخْلَاصِ الَّتِي تُعَدُّ ثُلُثَ الْقُرْآنِ)** سورة الإخلاص هي سورة **﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ۝﴾** [الصمد: ١-٤] وتسمية سور القرآن:

■ تارة يكون باعتبار ذكر كلمة في السورة ليست في غيرها.

- أو باعتبار ذكر قصة في السورة مفصلة أكثر من غيرها من السور.
- أو باعتبار المعنى الذي في السورة.
- أو غير ذلك.

وهذه التسمية (سورة الإخلاص) بهذا الاعتبار الثالث، وهي أنها سميت سورة الإخلاص مع أنه ليست فيها كلمة الإخلاص؛ وذلك لأنها اشتملت على الإخلاص، واشتمالها على الإخلاص من جهتين:

الأولى: أنها تورث صاحبها - أعني المتدبر لها؛ القارئ لها - الإخلاص العلمي الاعتقادي؛ لأنها صفة الله جل وعلا، وقد جاء في الصحيح أن الصحابي قال للنبي ﷺ لما ذكر له أنه يقرأ سورة الإخلاص في مفتتح كل ركعة من الجهرية قال: إنها صفة الرحمن وإني أحبها. ^(١) فهي إذن فيها وصف الله جل وعلا، ولهذا من تدبر هذا الوصف صار عنده الإخلاص في العلم والاعتقاد، وتبرأ من الشرك في العلم والاعتقاد، والشرك في العلم والاعتقاد بكونه لا يوحد الله في الأسماء والصفات، والإخلاص في العلم والاعتقاد بكونه يوحد الله جل وعلا في الأسماء والصفات.

ومن جهة أخرى فإنها - أعني سورة الإخلاص - أخلصت لذكر صفة الله جل وعلا، فهي مشتملة على صفة الله جل وعلا وحده ليس فيها وصف لغيره، وليس فيها خبر عن غيره، وليس فيها قصة، وليس فيها حكم؛ بل هي وصف لله جل وعلا، فقد أخلصت لهذا.

فبالمعنى الأول ظاهر الاعتبار - أعني أنها من جهة أن من تدبرها يخلص لله جل وعلا - وبالاختبار الثاني أيضا المعنى صحيح لأنه يقال: أخلص الشيء يخلصه إخلاصا وتخليصا، بمعنى جعله متجردا لشيء دون غيره.

قال هنا: **(الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ)** وهذا من كلام النبي ﷺ، وذلك فيما رواه البخاري في الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، حيث إن رجلا أخبر عن رجل أنه سمعه يقرأ سورة الإخلاص هذه ليلة كاملة يرددها حتى أصبح، فأخبر النبي ﷺ؛ يعني ذلك الرجل أخبر النبي - كأنه يتقالتها يعني يقول قرأ الليلة كلها بسورة واحدة يرددها، فقال النبي عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن» ^(٢) وكونها تعدل ثلث القرآن وجهها أبو العباس ابن سريج أحد أئمة الشافعية وتبعه العلماء على هذا التوجيه من أن القرآن منقسم إلى ثلاثة أقسام:

- فهو إما خبر عن الله جل وعلا وصفاته.
 - وإما خبر عن الأولين.
 - وإما أحكام.
- وقال غيرهم قالوا: إنه منقسم إلى ثلاثة أقسام:

(١) البخاري، حديث رقم (٧٧٤).

(٢) مسلم، حديث رقم (٨١١).

■ أحكام.

■ وعقائد.

■ ووعد ووعيد.

وهذه السورة بهذا الاعتبار هي ثلث القرآن، فإنها تعدل من هذه الجهة ثلث القرآن، وكونها تعدل ثلث القرآن هذا يدل على أنها أفضل من بعض القرآن؛ وذلك لأنها تعدل ثلثه، يعني من الجهة التي ذكرت؛ أي أنها في وصف الله جل وعلا. وكونها تعدل ثلث القرآن؛ يعني أن فيها فضيلة على غيرها من سور القرآن، أو على غيرها من بعض سور القرآن.

وهذا المعنى مما تنازع الناس فيه؛ يعني كون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن، ما وجهه؟ اختلف الناس في ذلك، والذي عليه أئمة أهل السنة والجماعة؛ بل والسلف بعامة وهو شبه إجماع بينهم: أن كونها تعدل ثلث القرآن يدل على أنها أفضل من بعض القرآن، والقرآن بعضه أفضل من بعض، كما أن صفات الله جل وعلا بعضها يفضل بعضها، قال عليه الصلاة والسلام داعيا الله جل وعلا: «أعوذ برضاك من سخطك»،^(١) قال أيضا مخبراً عن ربه جل وعلا: «إن رحمتي سبقت غضبي»،^(٢) وهذا يدل على أن بعض الصفات أفضل من بعض.

وأيضا بعض الصفة قد يكون أفضل من بعضها الآخر، وهذا يترتب عليه أن يكون بعض القرآن أفضل من بعضه الآخر، ولهذا صارت الفاتحة هي أعظم سورة في القرآن، وآية الكرسي هذه أعظم آية في القرآن، وسورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن. هذا مذهب أهل السنة والجماعة في تفضيل بعض صفات الله على بعض، وتفضيل بعض القرآن على بعض.

وقال المبتدعة من الأشاعرة وغيرهم: إن صفات الله لا تتفاضل وكذلك كلامه لا يتفاضل، ومأخذ هذا عندهم أنه واحد بالعين، فلا يمكن أن يفضل بعضه بعضا؛ لأنه قديم وكله واحد، كله أمر واحد، كله نهي واحد، كله خبر واحد، وإنما الذي عبر عنه جبريل فيمنعون التفاضل، وعلى هذا فإن تفسيرهم لكون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن يرجعونه إلى الثواب، فيقولون: هي تعدل ثلث القرآن باعتبار الثواب؛ يعني أن من قرأها يثاب، لا أنها في نفسها أفضل من غيرها.

وهذا الكلام هو بعض جهة التفضيل؛ لكن ليس كل جهة التفضيل، يعني أن سورة الإخلاص نعم تفضل من جهة أن قارئها له ثواب أعظم من تلاوته لغيرها، فلا يستوي من جهة الثواب قراءة سورة الإخلاص مع قراءة سورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾^(١) [المسد] التي هي قبلها مثلاً؛ ولكن ليس هذا وحده؛ بل أيضا لأن كلام الله - جل وعلا - بعضه أفضل من بعض، وأشكل عليهم هذا من جهة أن

(١) مسلم، حديث رقم (٤٨٦).

(٢) البخاري، حديث رقم (٣١٩٤). مسلم، حديث رقم (٢٧٥١).

الكلام واحد عندهم، وهذا لإبطاله موضع سيأتي - إن شاء الله تعالى - عند الكلام على صفات الله جل وعلا.

وتبين بعض ذلك أن الكلام له نسبتان:

الأولى: من جهة المتكلم به.

والثانية: من جهة المتكلم فيه.

فإن الكلام يتفاضل عند الناس في عرفهم من هاتين النسبتين:

إما من جهة أن المتكلم أفضل من المتكلم الثاني: كلام الرسول ﷺ ليس ككلام أبي بكر؛ بل كلامه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أفضل من كلام أبي بكر، وذلك بالنظر إلى اعتبار أن المتكلم هو النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

الجهة الثانية المتكلم فيه: فيتفاضل الكلام باعتبار المتكلم فيه، فمثلاً تتكلم أنت في العلم، وتتكلم تارة أخرى في غير العلم، كلامك في العلم أفضل من كلامك في غيره؛ وذلك لأن المتكلم فيه أفضل. فإذاً يكون التفضيل هنا من جهة المتكلم فيه، يعني موضوع الكلام، وموضوع الكلام يجمع شيئين: المعاني والألفاظ.

فإذاً في كلام الله جل وعلا (سورة الإخلاص) تفضل على غيرها، كذلك الفاتحة تفضل على غيرها، وآية الكرسي أعظم من غيرها من جهة الاعتبار الثاني.

من جهة المتكلم، المتكلم بالجميع هو الله جل وعلا، فمن هذه الجهة لا تفضيل؛ لأن الجميع كلام الله جل وعلا، لكن من جهة المتكلم فيه فإن:

سورة الفاتحة مثلاً فيها أصول ما في القرآن من العلوم والهداية.

آية الكرسي صفة الله جل وعلا، أعظم آية في القرآن لما فيها من الإخبار عن الله جل وعلا في وحدانيته في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته ونعوت جلاله وعظمته وجبروته ونحو ذلك.

سورة الإخلاص من جهة ما تعلق به من جهة ما فيها من المعنى هي أفضل من سورة مثلاً ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (١) ﴿كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ وَغَيْرُهُ؛ لِأَنَّهَا مُتَعَلِّقَةٌ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ - جَلَّ وَعَلَا - وصفاته ونعته، وتلك خبر عن بعض المتوَعِّدين من خلقه، ولا شك أن الكلام عن صفة الله أفضل من الكلام عن خلق الله.

فإذاً جهة التفضيل موجودة، والقرآن بعضه أفضل من بعض، ومن أنكر ذلك فإنه مناقض لكلام السلف، وقد قال جل وعلا: ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦] وفي القراءة الأخرى ﴿مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا﴾ [البقرة: ١٠٦]، وقوله هنا: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ مطلق يحتمل أن تكون الخيرية في الحكم أو أن تكون الخيرية في الموضوع في الفضل، ولهذا قال بعدها: ﴿أَوْ مِثْلَهَا﴾ وذلك بالاعتبار الثاني.

وعلى هذا تكون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن بهذا المعنى المتركب من شيئين:

وهو أنها أفضل من غيرها باعتبار ما فيها من صفة الله.

وأيضا هي أفضل من غيرها باعتبار ما يترتب من الثواب لقارئها، هذا ما قرره أئمة أهل السنة والجماعة في ذلك.

قال رَحِمَهُ اللهُ بعد ذلك: (فِي سُورَةِ «الإِخْلَاصِ» الَّتِي تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ، حَيْثُ يَقُولُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ١) **اللَّهُ الصَّمَدُ** ٢) **لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ** ٣) **وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ** ٤) [الإِخْلَاصُ] هذه السورة عظيمة جدا من جهة معناها، عظيمة جدا لأنها تتعلق بصفة الله جل وعلا لهذا يقول العلماء: (شرف العلم بشرف المعلوم)، يشرف العلم بشرف المعلوم، فما هو المعلوم؟ هنا المعلوم بهذه السورة هو الله جل وعلا؛ لأنها صفة الرحمن سبحانه؛ ولأنها اشتملت على أنواع التوحيد الثلاثة.

قال سبحانه: ﴿قُلْ﴾ يا محمد، و﴿قُلْ﴾ هذه من الأدلة لأهل السنة على أن القرآن حرف وصوت وأن جبريل قد سمعه على هذا النحو فبلغه على نحو ما سمع.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ هذه السورة لنزولها سبب، وقد قال بعض المفسرين: إنها مكية. وقال آخرون: إنها مدنية. ولنزولها سبب وقد اختلفوا في سببه نذكر الأقوال ثم بعد ذلك نأتي للإسناد:

قال بعضهم: إن المشركين قالوا للنبي ﷺ: أنسب لنا ربك، فنزلت هذه السورة.

قال آخرون: نزلت في الجواب عن سؤال اليهود حيث قالوا للنبي عليه الصلاة والسلام: من أي شيء ربك؟ من أي شيء إلهك؟ فنزلت.

وهناك أقوال غير هذه في سبب النزول، والمعتمد هو الأول وهو ما رواه الترمذي وابن جرير وجماعة من أهل العلم كثير من أن سبب نزولها أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: انسب لنا ربك أو انسب لنا إلهك فنزلت هذه السورة.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إذن هذه السورة في بيان صفة الله جل وعلا، قال جل وعلا: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لأولئك المشركين أو لأولئك اليهود والنصارى ﴿هُوَ﴾ يعني الذي سألتهم عنه، ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿اللَّهُ﴾ هذا علم على المعبود بحق سبحانه، وقوله: ﴿أَحَدٌ﴾ هذه أصلها من (وَاحِدٌ) من الوحداية، والأحدية جاءت في القرآن تارة منفية وتارة مثبتة:

فأما المنفية فهي لغير الله جل وعلا.

وأما المثبتة فهي لله جل وعلا.

يعني أن لفظ ﴿أَحَدٌ﴾ لم يطلق في الإثبات على غير الله جل وعلا؛ ولكنه في النفي - إما الصريح أو المضمّن - فإنه يطلق على غير الله جل وعلا، كما قال هنا: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، وقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ﴾ [التوبة: ٦]، ونعني بالنفي الذي ذكرناه: النفي أو ما يكون له معناه عند البلاغيين وهو الشرط والاستفهام ونحو ذلك، قال: ﴿هَلْ يَرِيكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا﴾ [التوبة: ١٢٧]، هذا استفهام له مقام النفي ﴿وَإِنْ أَحَدٌ﴾ هذا شرط أيضا له معنى النفي، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ هذا نفي.

فإذن كلمة ﴿أَحَدٌ﴾ أتت في القرآن في سياق النفي أو الاستفهام أو الشرط وهذه لغير الله جل وعلا. أما في الإثبات في الإثبات، فهي لله جل وعلا لا تطلق على هذا الوجه بدون نفي إلا لله جل وعلا،

﴿قُلْ هُوَ﴾ الذي سألتكم عنه ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿أَحَدٌ﴾ بمعنى الواحد الذي لم يشركه شيء في وحدانيته، وأحدية الله -جل وعلا- يعني وحدانيته في: ربوبيته وفي إلهيته وفي أسمائه وصفاته. نقول: واحد في ربوبيته لا شريك له؛ أي لا مشارك، لا وزير له، لا معاون له، وهذه كلها ادعاها المشركون.

وهو واحد جل وعلا في إلهيته لا شريك له فيها؛ أي استحقاق العبادة. وهو واحد جل وعلا في أسمائه وصفاته لا مثل له ولا نظير ولا كفؤ ولا سمي له في أسمائه وصفاته. فإذن قوله: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ هذا يشمل أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

هنا بعدها بين جل وعلا بعض التفصيل لكلمة ﴿أَحَدٌ﴾، فقال سبحانه: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ هذا مبتدأ ﴿اللَّهُ﴾ خبره ﴿الصَّمَدُ﴾، ويقول علماء البلاغة: إن الخبر إذا جاء معرفاً بالالف واللام فإنه يقتضي الحصر ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ يعني الذي ليس صمداً إلا هو، ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ يعني الله الذي لا يستحق الصمدية إلا هو، ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ يعني هو الذي قُصِرَ عليه وحُصِرَ فيه معاني الصمدية على وجه الكمال، وأما البشر فإنهم يقال عنهم: فلان صمد، فلان صمد إذا كان يصمد إليه -ويأتي معنى ذلك إن شاء الله تعالى-.

إذن فقوله: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ فيها حصر الصمدية حصر الصمد في الله جل وعلا، فالله من أسمائه ﴿الصَّمَدُ﴾.

فما معنى ﴿الصَّمَدُ﴾؟

المفسرون من السلف اختلفوا في تفسيرها، على قولين مشهورين، وكل قول فيه تفاصيل، وأيضا القول منهما يدل على الآخر بنوع من الدلالة.

أما القول الأول: فهو أن ﴿الصَّمَدُ﴾ هو الذي لا جوف له، ﴿الصَّمَدُ﴾ كما جاء عن ابن مسعود ورويت عنه موقوفة ومرفوعة أيضا لكن لا يصح المرفوع، وأيضا رويت عن ابن عباس، وعن جماعة من مفسري السلف بأن ﴿الصَّمَدُ﴾ الذي لا جوف له، وهذا بمعنى أنه لا يتخلل ذاته جل وعلا شيء؛ بل هو جل وعلا واحد بالذات، والمخلوقات غير الملائكة لها جوف يدخل فيها ما يدخل ويخرج منها ما يخرج، ويلدون ويحمل منهم من يحمل ويلد من يلد، ويأكلون ويشربون ويتغوطون، وهذه كلها من صفات النقص.

ولهذا فسرهما بعضهم بأن ﴿الصَّمَدُ﴾ الذي لا يأكل ولا يشرب، وقال بعضهم: ﴿الصَّمَدُ﴾ تفسيره ما بعده، وهو قوله: ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وهذه كلها في المعنى واحدة وهو أن ﴿الصَّمَدُ﴾ الذي لا جوف له؛ لأن الأكل والشرب يحتاج إلى جوف يمرّ فيه، وكذلك الولادة تحتاج أن تخرج من جوف. والله جل وعلا (صمد) ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾. هذا هو المعنى الأول.

وهذا قال ابن قتيبة وابن الأنباري هذا مأخوذ من (الصَّمَت) بالتاء، فكأن الدال هنا في قوله:

﴿الضَّمَدُ﴾ مبدلة من التاء، من الصمّت أو المصمت من الشيء المصمت فهو الذي لا شيء في داخله، قالوا الدال مبدلة من التاء.

وهذا رده شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ وَقَالَ: ليس هذا بوجيه بل الأولى أن يحمل هذا على الاشتقاق الأكبر وهذا صحيح، لأن ﴿الضَّمَدُ﴾ والصمّت يعني المصمت و﴿الضَّمَدُ﴾ بينهما اشتقاق أكبر، فبينهما اتصال في المعنى.

أما القول الثاني: وهو أيضا مروي عن ابن عباس وجماعة كثير من المفسرين من السلف فمن بعدهم^(١) أن ﴿الضَّمَدُ﴾ هو الذي كُمل في صفات الكمال، وهو الذي يستحق أن يُصمَد إليه في الحوائج؛ يعني يُسأل ويُطلب ويرغب فيما عنده، وهو الذي يأتي بالخيرات وهو الذي يدفع الشرور عن من يصمَد إليه. وهذا مروي من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في صحيفة التفسير الصحيحة المعروفة، حيث قال: ﴿الضَّمَدُ﴾ هو السيد الذي كُمل في سؤدده، الشريف الذي كمل في شرفه، العظيم الذي كمل في عظّمته، الحليم الذي كمل في حلمه، العليم الذي كمل في علمه.

يعني أن ﴿الضَّمَدُ﴾ هو الذي اجتمعت له صفات الكمال، وعلى هذا هو الذي يُصمَد إليه؛ يعني يُتوجه إليه بطلب الحوائج إما بجلب المسرات أو دفع الشرور والمضرات، وهذا معروف من جهة الاشتقاق من جهة الصمَد، صمَدَ إلى الشيء بمعنى توجه إليه، وقد جاء في السنن أن النبي ﷺ كان إذا صلى إلى عمود أو إلى سارية لم يصمُد إليه صمدا وإنما جعله عن يمينه أو عن يساره^(٢). وهذا الحديث استدلل به شيخ الإسلام في كتاب اقتضاء الصراط المستقيم في موضع وفي إسناده ضعف؛ لكن المقصود هنا الشاهد اللغوي، كان لا يصمَد له، بمعنى لا يتوجه إليه صمدا، يتوجه إليه دون غيره بمعنى يكون مقابلا له متوجها له دون ما سواه، وهذا إنما هو لله جل وعلا.

أما المخلوق فإنه وإن صمَد إليه، بمعنى إن تُوجّه إليه في الحاجات فهو أيضا يحتاج إلى أن يصمُد وأن يصمَد إلى غيره، أما الله جل وعلا فهو الذي كملت له أنواع الصمود، وهو أنه الذي لا يستغني شيء عن أن يتوجه إليه وعن أن يصمَد إليه، وهو جل وعلا مستغن عن أن يصمَد إلى شيء.

ولهذا فسرها من فسرها من السلف قال: ﴿الضَّمَدُ﴾ هو المستغني عما سواه، الذي يحتاج إليه كل ما عداه. فسّرت ﴿الضَّمَدُ﴾ بذلك، وهذا يعني أن الصمدية راجعة إلى صفة الله أولا ثم إلى فعل العبد، يعني العباد هم الذين يصمدون إليه.

فإذن على هذين التفسيرين يكون قوله: ﴿الله الضَّمَدُ﴾ فيها صفة الله جل وعلا -القول الأول-. والثاني فيها أنواع صفات الله جل وعلا؛ لأن معنى ﴿الضَّمَدُ﴾ السيد الذي قد كمل في سؤدده، الشريف الذي كمل في شرفه؛ يعني ﴿الضَّمَدُ﴾ من كملت له صفات الكمال، وهذا ثابت في حق الله. وأيضا على هذا يكون ﴿الضَّمَدُ﴾ الذي يُصمَد إليه في الحوائج.

(١) انتهى الوجه الأول من الشريط الرابع.

(٢) سنن أبي داود، حديث رقم (٦٩٣). قال الشيخ الألباني: ضعيف.

فيكون على هذا التفسير يكون قد جمعت كلمة ﴿الضَّمَدُ﴾ بين توحيد الأسماء والصفات وبين توحيد الإلهية؛ لأن الذي يُضَمَدُ إليه وحده في الحوائج، يُرْغَبُ إليه وحده، يُطْلَبُ منه السؤال وحده، يُحْتَاجُ إليه وحده، هو ﴿الضَّمَدُ﴾ وهو الله جل وعلا.

وفي هذا رد على المشركين الذين ألوهوا غير الله أو وصفوا الله جل وعلا بصفات النقص من اليهود والنصارى والمشركين ومن شابههم.

قال هنا: ﴿اللَّهُ الضَّمَدُ ٢﴾ ﴿لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ٣﴾ ما قبلها وهي كلمة ﴿الضَّمَدُ﴾ ذكرت لكم أن منهم من فسرهما بما بعدها وهي قول: ﴿لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾.

كلا المعنيين صحيح ورجح شيخ الإسلام أن المعنى الأول والثاني متلازم، متلازم هذا وهذا، هذا يلزم هذا وهذا يلزم هذا.

قال هنا: ﴿لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وهذا نفي، وقوله: ﴿لَمْ يَكِلِدْ﴾ يعني لم يخرج منه ولد فيرثه في ملكه، وقوله: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ يعني لم يخرج من شيء فيكون هو وارثا له، بل هو جل وعلا المستحق للملك بذاته، هو جل وعلا ذو الملكوت، هو صاحب ذلك المستحق له لم يحتج جل وعلا إلى غيره ﷻ عما يقول الظالمون علوا كبيرا.

وهذا النفي قوله: ﴿لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ كما قررت لك فيما سلف في الدرس الماضي أن النفي في الكتاب والسنة إذا كان في صفات الله فإنه لا يكون مدحا إلا إذا اقتضى إثبات الصفة، وهذه الصفة التي تُثَبَّتُ هي ضد الصفة المذكور نفيها، وهنا نُفِيت عن الله جل وعلا صفتان: صفة أنه يلد، وصفة أنه يولد.

وهاتان الصفتان هما في المخلوق من صفات النقص لا من صفات الكمال؛ لأن المخلوق يحتاج في إيجاده إلى أن يُحْمَلَ به، ويحتاج هو إلى أن يلد حتى يبقى.

فإذن كونه ولد وكونه يولد، هذا من صفات النقص فيه؛ لأنها دليل على عدم استغنائه، دليل على حاجته، دليل على فقره دليل على ضعفه. وهذا منتفٍ عن الله جل وعلا.

فإذن ﴿لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ هذا نفي وهذا النفي يراد به إثبات كمال ضده، وكمال ضد هذا النفي هو كمال غنى الله جل وعلا، ﴿لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ لِمَ؟ لكمال غناه ولكمال صمديته -الذي هو بالمعنى -، ولكمال جبروته ولكمال قهره جل وعلا ولكمال صفاته.

فإذن ﴿لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ فيها إثبات لكمال صفة مضادة لهذا، وهي صفة الغنى لله جل وعلا وعدم الاحتياج، بخلاف المخلوقين الذين يحتاجون إلى أن يولدوا ويحتاجون إلى أن يلدوا وهم محتاجون إلى كلتا الجهتين في كل مخلوق يلد ويولد.

قال بعدها: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ هذا النفي مجمل؛ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، وما قبله إثبات مفصل، وهذا أحد الأدلة على أن القرآن فيه النفي المجمل وفيه الإثبات المفصل.

أما الإثبات المفصل في هذه السورة فهو قوله: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ و﴿أَحَدٌ﴾ فيها إجمال؛ لكنها باعتبار أفرادها -أنواع التوحيد الثلاثة- يكون ذلك مفصلا، وقوله: ﴿اللَّهُ الضَّمَدُ﴾ ما يشمله من

الصفات، كذلك باعتبار أفرادها يكون مفصلاً.

قوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ، كُفُوًا أَحَدٌ﴾ هذا نفي مجمل.

أما قوله: ﴿لَمْ يَكِلْهُ وَلَمْ يُؤَلِّدْ﴾ فهل يعد من النفي المفصل؟ هذا الجواب عنه أن هذا النفي من جنس ما في القرآن من النفي، وهو أنه لا يراد به تفصيل النفي وإنما يراد به إثبات كمال الضد، ومعنى ذلك أن النفي إذا ورد في القرآن مفصلاً فهو محمول على الإثبات المفصل؛ لأن المراد منه إثبات كمال الضد، وكمال الضد في قوله: ﴿لَمْ يَكِلْهُ وَلَمْ يُؤَلِّدْ﴾ هي صفة الغنى التام وأنواع الكمال في الأوصاف وهذا من الإثبات المفصل.

قال هنا: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ، كُفُوًا أَحَدٌ﴾، ﴿أَحَدٌ﴾ هذه اسم ﴿يَكُنْ﴾، لم يكن كُفُوًا له أحد، لم يكن كفواً له أحد، هذا السياق، هنا قال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ، كُفُوًا أَحَدٌ﴾ فقدم خبر ﴿يَكُنْ﴾ على اسمها لأنه هو المقصود، فالمقصود نفي المماثلة، نفي أن يكون ثم كفؤ وليس المقصود الإخبار، ليس المقصود أن يُثبت لغيره المشابهة، وإنما المقصود أنه ليس له كفواً أحد، وهذا من أسرار التقديم، فإنه إذا كان الخبر أهم فإنه يقدم، إذا كان هو المقصود يكون مقدماً؛ لأن المقصود بالإخبار تارة يكون المبتدأ وتارة في النفي يكون الخبر.

قال هنا سبحانه: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ،﴾ - يعني لهذا الذي وصف؛ لله جل وعلا: ﴿كُفُوًا﴾ و﴿كُفُوًا﴾ فيها قراءتان:

- قراءة هذه قراءتنا بضميتين الكاف مضمومة والفاء مضمومة ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ، كُفُوًا﴾.
- وأما قراءة غير حفص فإنه يقرأوها - مثل نافع وغيره - يقرأونها بالإسكان ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ، كُفُوًا﴾.^(١)

فمن الغلط أن تُقرأ ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ، كُفُوًا أَحَدٌ﴾ لمن يقرأ برواية حفص عن عاصم. (الكفو) المنفي هنا ذكرنا لكم معناه فيما سبق وهو أن (الكفو) المثل والنظير والشبيه، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥]، و(الأنداد) جمع ند وهو الكفاء والنظير والمثل، وذكرت لكم قول الشاعر:

أتهجوه ولست له بكفء

حسان في مدح النبي ﷺ، يعني ولست له بند، فالكفو والكفو من المكافأة وهي المساواة، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ، كُفُوًا﴾ يعني لم يكن له ندا، لم يكن له نظير، لم يكن له مثيلاً، لم يكن له سمياً ﴿أَحَدٌ﴾، و﴿أَحَدٌ﴾ هنا نكرة في سياق النفي فهي تعم كل من صدق عليه اسم أحد في النفي، تعم كل أحد ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ، كُفُوًا أَحَدٌ﴾ يعني من خلقه، فلا أحد يكافئه ولا يماثله؛ لا في ذاته جل وعلا ولا في صفاته ولا في أسمائه، فإنه لا مثيل له ولا نظير ولا مكافئ ولا عدل، تبارك ربنا وتقدس وتعظم. هذه السورة فيها إذن إثبات الصفات.

(١) في ورش عن نافع: ﴿كُفُوًا﴾.

وهذه السورة يفسرها من يفسرها من أهل البدع بتفسيرات مختلفة: فمثلا الأحدية عندهم يقولون: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، (الأحد) هو الواحد بالذات، المتنزه عن الأبعاد والأركان والجهات، هذا مثلا تفسير من تفاسير المبتدعة. أو يقولون: (الأحد) هو الواحد في ذاته لا قسيم له، ويعنون بذلك أن ذاته غير منقسمة، وهذا ليس هو معنى الأحدية؛ لأنهم يريدون بذلك نفي الصفات التي هي بالنظر إلى كل صفة صفة فإنها تكون غير الأخرى، فالوجه من الذات ولكنه غير اليمين. فإذا قالوا: (واحد في ذاته لا قسيم له) يريدون أن ينفوا عنه الصفات الذاتية كالوجه واليمين ونحو ذلك.

تفاسير المبتدعة في هذا كثيرة جدا، ولا شك أن هذه السورة في وصف الله جل وعلا بما اشتملت عليه مما تؤلف فيه مؤلفات طويلة تحتاج إلى بسط وتطويل في بيان ما تحمله كلماتها من المعاني العظيمة، فلا شك أنها تعدل ثلث القرآن. وقد قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: إِنَّ الْأَخْبَارَ الَّتِي فِيهَا أَنْ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تعدل ثلث القرآن تبلغ مبلغ التواتر.

وهذا لعظمها وعظم شأنها، فلا غرو -إذن- أن يتلوها النبي -عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ- في أحيانه كلها عند الصباح والمساء، وكثيرا في النوافل، وفي الوتر وركعتي الفجر وركعتي الطواف، وفي كثير من أحيانه لأنها صفة الله جل وعلا. نقف عند هذا لأن آية الكرسي تحتاج أيضا إلى بسط. وقد ذكرنا شيئا من التفصيل على سورة الإخلاص لأهمية ذلك، وأسأل الله -جل وعلا- أن ينفعني وإياكم بما سمعنا، وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

